من الأدب الايطالى

عدو...

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

كان جالساً فى حجرة المطالعة الى المقعد بجوار النافذة شارد اللب ، مشتت الخاطر ، يحدق فى الفضاء المتراءى أمامه لا يثبت شيئاً ولا يحققه ، وقد اضطربت فى رأسه خواطر .. خواطر سوداء يريد أن يطردها بما ينفثه من دخان سجائره . كان كذلك حين نادته زوجته من خلف الباب « بيترو بيترو ؛ أتستطيع الدخول ؟ » ثم .. ثم دفعت الباب فى رفق وهى تقول : « أرجو أن تعيرنى سمعك قليلا ، سأقص عليك خبرا هاما » وتقدمت فى هدوء وهى تلوّح بمنديلها تطرد به سحب الدخان المتكاثفة هنا وهناك : لقد أفرطت فى التدخين يا بيترو ، وهو يهدّ من كيانك . لماذا تجلس صامتاً فى الظلام ؟ وكان ثوبها الحريرى الجميل يحف حفيفاً خفيفاً ، وقرطها الماسى يشع نورا ؛ وكانت هى تبدو أنيقة جذابة لأن هذا اليوم هو يوم الاستقبال ...

وزفر الزوج زفرة عميقة ثم نظر الى زوجته وهو يبسم فى تهكم ويقول : « لماذا رتبت شعرك مثل ما أرى وقد جاوزت سن الفتاة ؟ » فاضطربت شفتاها وقالت : « إن شعرى لا يليق أن يشعث ، ولكن لا بد للمرء أن يبدو أنيقاً حين ينتظر قدوم الزائر » ، وفى لهجة السخرية قال : « حقاً . إن هذا اليوم عظيم . إن النواقيس لا تنفك ترن رنينها العذب ... »

واقتربت الزوجة رويداً رويداً من زوجها وقالت وهى تبسم فى رقة وقد طرحت وراءها كل تهكمه : « أتعرف سالفيتى ... سالفيتى القانونى الشاب ؟ إن أمه كانت هنا اليوم ؛ أفهمت ما أعنى ... ؟ »

فقاطعها الزوج فى جفاء وقال : « لا ، أنا لا أعرفه »

« إنك تذكره تماما : القانونى الشاب : إنه يبدو أنيقا رقيقاً : »

« أنا لا أذكره »

وفى الحق لقد كان بيترو يعرف الشاب ، ولكن أى قوة على الأرض تستطيع أن تنتزع من بين شفتى هذا العنيد اعترافا ؟

فقالت الزوجة فى رقة : « لا بأس فأنا موقنة بأنك ستذكره حين تراه . لقد أسهبت أمه فى وصف ابنتنا إيلينا بصفات الجمال والكمال والرقة والأنوثة و... ثم راحت تطلبها زوجا لابنها الشاب فى رجاء واستعطاف فوافقت ؛ وسيزورك زوجها بعد ... »

« وافقت ؛ أحقاً ما تقولين ؟ »

وصاحت المرأة : « بيترو : أى زواج خير من هذا الزواج ؟ وايلينا تهوى الفتى : ... »

وانتفض الرجل كمن مسه طائف من الشيطان رعد وزأر هائجا مضطربا « وكيف ؟ كيف استطاعت الفتاة أن تغرم بهذا الشاب ؟ أين تلاقيا ؟ أريد أن أعرف ... وأنت ... أنت التى لا تعرفين معنى الأمومة ، كيف تركت لها العنان لتندفع فى طريقها طائشة ؟ هيه : تكلمى : لقد سمحت لابنتك أن تحب رجلا لا أعرفه : لعلهما تراسلا أيضا : ولعلك كنت واسطة بينهما : لقد تمت القصة وعلى عينى ستار كثيف أسود :

واضطربت المرأة ، وخارت قوتها ، وطاوعها ثباتها ؛ فغطت وجهها بيديها تخفي بعض خجلها ، وتستر ضعفها الدموي المنسكب من عينيها ، ثم راحت تنتزع الكلمات من بين شفتيها انتزاعاً : « لا لا يابيترو ، لقد ظننت أني أحمل إليك بشرى ، لماذا أنت كذلك ؟ لماذا ؟ ماذا اقترفنا ، وأي غرابة في ذلك ؟ شابان راق كل منهما في نظر صاحبه فتعلق أحدهما الآخر وأحبه ، وبادله الآخر حباً بحب وغراماً بغرام ؛ أليس هـذا ما كان بيننا يابيترو ؟ أنت ظالم ... »

وكان الرجل ظالماً ، وبدا في جلسته مهموماً مضطربا ، وقد تدلى رأسه كأن فيه ثقل جبل ، وكانت أفكاره تضطرم اضطراماً ، وأحس كأنما يعاني ألماً ممضاً ، وحين كبح جماح غضبه ارتد هـذا في جسمه فتور واستخذاء ، واستيقظ ضميره يخزه وخزات شديدة تؤلمه ، كما آلمته أعصابه المضطربة من قبل . نعم لقد أحب ساليليا وهام بها ، فسعى إليها وقد اختارها لنفسه ، ثم ... ثم فاز بها بعد طويل عناء . إنها قصة غرام قديم ... قديم منذ نيف وعشرين سنة ؛ ولكن الحقيقة لا تهرم ، وعلى رغم أن العقد الثالث من عمر ساليليا قد انفرط منذ زمان إلا أنها لا تزال جذابة جميلة . أما هو ... وهو يحبو للخمسين يبدو للعين كمن جاوز السبعين ؛ أما قلبه فما برح شاباً يؤمن بالحب ، ويحبوه بما في رأسه ويده معاً ، لذلك ... لذلك كان الرجل ظالماً

وحين تراءى له في خياله كل ذلك تقارطته الهموم فصاح : « ساليليا ، أعصابي ... دعي هذا الأمر الآن ... »

وكفكفت المرأة عبرات الخيبة في صمت ، ثم انطلقت إلى ابنتها حزينة كئيبة تحدثها الحديث كله ، وتقف في طريقها إلى أبيها الثائر خشية أن يقع في أمر . وساد صمت رهيب حين علم الجمع أن أعصاب الأب تضطرب ، فأمسك فرنسسكو عن العزف على البيان ، وتركت لوشيانا لعبتها ، وصمت بيبينو الصغير عن استذكار دروسه ، حتى الخادم المسكينة ، خففت من وطئها وهي تمد المائدة للاتزعج سيدها ...

وعلى المائدة جلس الجميع في سكون ، وبدت إيلينا قلقة جزعة ، وقد سيطر عليها اليأس ، واضطربت الشوكة في يدها فسقطت ، وفي سذاجة الطفل التقطها بيبينو وهو يبسم ، ثم انفجر ضاحكا ؛ وضحكت لوشيانا ، ثم فرنسسكو ، حتى الأم الحزينة افتر ثغرها عن ابتسامة خفيفة . وغاظ الزوج ما رأى ، فأراد أن يخمد هـذه الزوبعة في خشونة وعاطفة ، فنظر إلى زوجته ومن عينيه يتطاير شواظ يتقد وقال : « أعدي ملابسي ، سأسافر غـداً إلى قريتنا ... قريتنا فالكونيتـوا » ؛ وذعرت الزوجة وتردد نظرها حائراً بين الزوج الحنق وبين الفتاة وهي تتلقى الصفعة القوية . وأدرك الجميع ما أراد الأب ، فاطرقوا في حزن إلا بيبينو الصغير ، فقد لمعت عيناه بالفرح ... فرح التلميذ الصغير ينتظر الأجازة ... فأشار اليه الأب : « أمسرور أنت لأني ذاهب ... ؟ » فارتمى الطفل وقال : « لا ، لا يا أبي ، حقاً لا ! »

وانطلق الأب والزوجة تقول له في صوت ضعيف : « أتعود قريباً ؟ لا بد أن تفكر في هذا الأمر » فقال : « أي أمر ؟ » قالت : « زواج إيلينا ! إن ذهابك معناه الرفض والتحدي معاً . إن سعادة ابنتك فوق كل عمل في فالكونيتو » ولكنه كان في ثورته يبدو عنيداً فقال : « لا جرم أن المرأة حين تفكر في الحب تراه فوق كل عمل وان كان عظيما ! »

لم يكن العمل هو الذي دفع الزوج الى القرية ولم تكن الرغبة ، وإنما كانت النفس الشريرة التي

ديه هى التى أرادته على أن يسىء الى أهله ...

وصاحت الزوجة : « بيترو ، لا تذهب ... »
غير أن الرجل اندفع لا يلوى على شىء حتى إذا كان لدى الباب التفت الى ورائه فرأى ... رأى أبناءه فى إطراق حزين ، وصمت مؤلم ، وما همّ أحد ليودعه ، فقال له ضميره : « أرأيت .. أرأيت أسرتك المحبوبة كيف تتركهم عبيداً أذلاء ؟ »

وعند انبثاق الفجر كان الزوج فى طريقه الى القرية

* * *

جلس بيترو وحيداً إزاء المدفأة فى بيت قديم له بالقرية ، وخياله عند الجماعة الذين خلفهم هناك فى المدينة ؛ وبدت نفسه رفيقاً له يحدثه : « كأنى أسمع الزوجة تقول لابنتها : أمغتبطة أنت يا إيلينا ؟ فتنطوى الابنة على همّ ، ونفسها تضطرم أسى ولوعة . وكأنى بالأولاد من حولها يمرحون ويقولون : ما أجمل المكان حين يرتفع عنه هو ... هذا الكابوس هذا الكابوس هو أنت ... أنت الذى لا يحبك أحد ، ولا يسر لمرآك طفل ... أنت الشبح المخيف ... أنهم يكرهونك ويمقتونك ... عجيب هذا ؟ كيف مرت الأيام وأنت تورث الفكرة فى أذهانهم عن جهل منك وغفلة ؟

لقد كان وحيداً ، ولكنه كان هادئاً يستطيع أن يشعر بنفسه الأخطاء التى ارتكبها ؛ ويستطيع أن يرى بعينى عقله ثمار القسوة والغلظة وهى مرة كريهة . واستيقظ ضميره مرة أخرى يؤنبه بكلمات لاذعة قاسية ، وحكم هو على نفسه حين نشر على عينيه تاريخ أعوام مضت . لقد كان الى عهد قريب هادئ الطبع ، حلو الشمائل ، رقيق العاطفة ، طيب القلب ؛ وحين أحس مصباح الحياة ينطفئ أمام عينيه لمس هو الظلام فى كل شىء ، وراحت أعصابه تضطرب مما يقوى على ضبطها . ماذا جنت زوجته وهى رقيقة عذبة الحديث عطوفة رحيمة طيبة ؟ وماذا جنى هؤلاء الأطفال الأبرياء أيرى هو الهفوة الهينة منهم كبيرة لا يكفر عنها إلا العقاب الشديد ؟ ثم ماذا فى هذه الأعصاب الفانية المضطربة ؟ لقد كانت رسول الشؤم والظلام فى هذه الدار وأهلها آمنون »

هذه هى النهاية ... !

وطافت أيام الشباب فى خياله تذكره قصة الماضى .. فرأى أسرته جميعاً تهدد فرقاً من ذكر أعصاب الأب المضطربة ، تلك الأعصاب الطائلة التى وقفت سداً منيعاً فى سبيل زواج كبرى بناته ، والتى أرغمت الصغرى على أن تتخذ حماراً وقد سيطر عليه الشك ؛ ثم هى أخرجت أكبر أبنائه من الدار لا يملك سلاحاً يسد به الرمق ؛ وبيترو .. بيترو نفسه قاسى ويلات ما مثلته به هذه الأعصاب الطائلة . قد كانوا يكرهون الأب ويمقتونه ، لما يرون فيه من الظلم والأنانية ، وكان بيترو نفسه يقول : « آه ، لو أن لى ولداً فقسوت عليه بمثل هذا لخنقت نفسى بيدى هاتين ... » أما الآن .. أما الآن فقد تراءى له ما يضطرب فى خواطر أبنائه هو جميعاً ، وأحس بما يضمرون له من المقت والكراهية ...

ليته يستطيع أن يطرح عن نفسه ذلك كله ليرجع اليهم وادعاً هادئاً رقيقاً ... وشغلته الفكرة وتصرمت أيام .

* * *

ووافته الزوجة وهى تقول : « ما كنت لأجرؤ على المجىء ، ولكن ... أنت مريض ... أنت مريض حقاً » ثم راحت تبكى فى صمت

وكان هذا الصراع النفسانى قد أنهك الرجل

فهو ذابل ذاو شاحب اللون ، مضطرب لا يكاد يستقر ، غير أنه قال فى لطف : « علام تبكين ؟ هل الأسرة بخير ؟ » قالت : « وأنت .. انت .. يجب أن تعود إلينا » قال : « نعم يجب أن أعود .. أعود إكراماً لأبنائنا ، يجب ... ولكننى أجد الراحة واللذة هنا ، وعندى هنا مايشغلنى . يجب ... لأن أبنائنا ... سأكتب .. سأ .. »

وكتب :

ابنتى العزيزة : أنا أوافق على زواجك من السنيور سالفيتى ، لك تمنياتى الطيبة وحبى الطاهر « أبوك »

وناول الزوجة الورقة وهو يقول : « أفى هذا ما يكفى ..؟ »

قالت « يكفى .. ولكن بيترو ، ماذا وراء الباقى ؟ الجهاز .. الناس .. الزفاف .. لا يمكن أن ترفض ! »

وتغاضى الرجل عن حديثها حيناً ثم نظر إليها وهو يقول : « إن القطار يتحرك فى الساعة الثالثة تماماً »

« وأنت ...؟ »

« سأرافقك إلى المحطة »

وانطلقا جنباً إلى جنب وذراعاً فى ذراع ، والزوجة تقول : « تعال معى يا بيترو ، تعال إلى دارنا تعال ! لا تبذر فيها غراس الشقاء بفراقك ... »

فقال الرجل فى هدوء : « سأظل هنا ما بقى لى من العمر لأنكم تشقون بى ، سأعيش هنا ... »

— « وحيداً ! »

— « نعم ، هنا ، انى أريدكم هانئين سعداء »

— « وكيف ... كيف نكون سعداء وأنت هنا ونحن هناك : يتامى وأرملة ؟ »

ثم راحت تندب حظها الأسود العاثر .

قال الرجل « ان كل من فى الحياة يحمل قسطه من المتاعب والأحزان ، وفى كل دار عدوها ؛ فالفاقة والرذيلة والسقوط كل أولئك أعداء ؛ أما دارنا ففيها عدو من نوع آخر هو .. هو أنا .. هذا ما أعرفه وأوقن به ، وليس لى من العزم ما أستطيع أن أخرج عن طبعى هذا ... عن ذوقى وعاداتى ، ولا أريد أن أبذر فى أبنائى غراس العداوة والبغضاء لى ، لهذا ... لهذا فأنا لا أستطيع أن أرجع إلى دارى ... أن أرجع ... لن أرجع حتى أبداً »

وبدا امتثال المرأة مراد زوجها ، ووضح لها ما يريد ؛ فقالت فى عطف وشفقة : « سأبعث إليك بفرنسسكو أو سالفيتى فهو فصيح اللسان قوى الحجة ... »

وراحت تودعه فى حرارة وشوق وقد أشرق فى نفسها تاريخ السعادة الأولى حين شبّا حبيبين ، وهى تقول : وسأرسل فرنسسكو يا بيترو ، فهو رحيم ، وهو يحبك ؛ يحبك على رغم كل شئ ، لأنك أبوه ؛ ثم صعدت إلى القطار

ورجع الزوج يتثاقل كأنما يحمل على ظهره حملاً ثقيلاً ، وتراءى له ابنه الأكبر فى الخيال يستعطفه ويرجوه ويجثو عند قدميه يبكى ويبكى ... فيبكى هو ، ويلين ، فيلبى ... ثم يرجع ويرجع معه العدو الذى فيه ، فتضطرب الدار ويفزع الأبناء . أين الخلاص ؟ وبدا له الخلاص وهو يسير على حافة هوة عميقة ، فى خطوة ... خطوة واحدة يتقدمها فى ثبات وعزم ، فأغمض عينيه وسار ...

* * *

وخرج فرنسسكو ليعود بأبيه فما عاد إلا بقصاصة ورق تحمل إليه النبأ المفزع ... موت أبيه

كامل محمود حبيب